٦٥ – باب ذكر الموت وقصر الأمل

قَالَ الله تَعَالَى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]، وقال تَعَالَى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بأيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} [لقمان: ٣٤]، وقال تَعَالَى: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل: ٦١]، وقال تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولئِكَ هم الْخَاسِرُونَ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: ٩ – ١١]، وقال تَعَالَى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يبْعَثُونَ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَومَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وَجوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي [ص:١٩٤] تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} إِلَى قَوْله تَعَالَى: { ... كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْئَلِ العَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ٩٩ – ١١٥]، وقال تَعَالَى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِم الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ١٦]، وَالآيات في الباب كَثيرةٌ معلومة.

==========

ذكر المصنف –رحمه الله رحمة واسعة– هذه الآيات الكثيرة التي تدل على أن الموت ، وأن كل نفس ذائقة الموت .

يقول تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

إنها الحقيقة الكبرى، كل حيٍّ سيفنَى، وكُلُّ جديدٍ سيبلى، وما هي إلا لحظةٌ واحدة، في مثلِ غمضةِ عين، أو لمحةِ بصر، تخرج فيها الروح إلى بارئها، فإذا بالعبد في عداد الأموات.

ذهب العمر وفات، يا أسير الشهوات، ومضى وقتك في سهو ولهو وسبات، بينما أنت على غيك حتى قيل: مات.

هُوَ المـوْتُ مَا مِنْهُ مَلَاذٌ وَمَهْرَبُ *** مَتَى حَطَّ ذا عن نَعْشِهِ ذاك يركَبُ

نؤمّـلُ آمالاً ونـرجُـو نِتَـاجَها *** وعـلَّ الرَّدَى عَـمَّا نُرَجّيـهِ أقْرَبُ

إلى الله نشـكو قسوةً في قُلُوبِنَا *** وفِي كُلِّ يـومٍ واعِظُ المـوتِ ينْدبُ

قال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ) .

هذه الآية الكريمة، فيها التزهيد في الدنيا بفنائها، وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر.

وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ).

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ).

وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ).

وقال تعالى (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً).

وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ).

فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته .... يوماً على آلة حدباء محمولُ

الموت: لا يرحم صغيراً، ولا يوقر كبيراً، ولا يخاف عظيماً، لا يستأذن على الملوك، ولا يلج من الأبواب.

تزود من الدنيا فإنك لا تدري .... إذا جن ليل هل تبقى إلى الفجر

الموت: يموت الصالحون ويموت الطالحون، ويموت المجاهدون ويموت القاعدون، يموت مريدوا الآخرة، ويموت مريدوا الدنيا.

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب .... متى حط عن نعشه ذاك يركب

إنه جدير بمن الموت مصرعُه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار موعده، أنْ لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تأهب إلا له.

قال الحسن: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي عقل عقلا .

قال بعض العلماء لأحد إخوانه: احذر الموت في هذه الدنيا قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده

قال أبو الدرداء: إذا ذكرت الموت فعد نفسك أحدهم .

قال الدّقاق: من أكثر من ذكر الموت أُكرمَ بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة).

قالت عائشة لامرأة: أكثري ذكر الموت يرق قلبك.

وقال الأوزاعي: من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير، ومن عرف أن منطقه من عمله قل كلامه.

وقال ثابت البناني: ما أكثر أحد ذكر الموت إلا رؤي ذلك في عمله.

وقال ابن عجلان: من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا.

وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله.

وقال الحسن: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا.

وقال الحسن: ما ألزم عبد ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عنده.

وقال أبو الدرداء: من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده.

وقال سعيد بن جبير: لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد عليّ قلبي.

وقال الأوزاعي: من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير.

وقال الثوري: لو أن البهائم تعقل من الموت ما تعقلون ما أكلتم منها سميناً.

وقال الحسن بن عبد العزيز: من لم يردعه القرآن والموت، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع.

وقال أبو نعيم: كان الثوري إذا ذكر الموت لم يُنتفع به أياماً.

وقال بعضُ السَّلف: ما نمتُ نوماً قط، فحدثتُ نفسي أنِّي أستيقظ منه.

وكان حبيبٌ أبو محمد يُوصي كُلَّ يومٍ بما يوصي به المحتضِرُ عند موته من تغسيله ونحوه، وكان يبكي كلَّما أصبح أو أمسى، فسُئِلَت امرأته عن بكائه، فقالت: يخاف – والله – إذا أمسى أنْ لا يُصبح، وإذا أصبح أنْ لا يُمسي.

وكان محمد بن واسع إذا أراد أنْ ينام قال لأهله: أستودعكم الله، فلعلَّها أنْ تكون منيتي التي لا أقوم منها فكان هذا دأبه إذا أراد النوم.

وقال بكر المزني: إنِ استطاع أحدُكم أن لا يبيت إلا وعهدُه عند رأسه مكتوبٌ، فليفعل، فإنَّه لا يدري لعله أنْ يبيتَ في أهلِ الدُّنيا، ويُصبح في أهلِ الآخرة.

وكان أويسٌ إذا قيل له: كيف الزمانُ عليك؟ قال: كيف الزمانُ على رجل إنْ أمسى ظنَّ أنَّه لا يُصبحُ، وإنْ أصبح ظنَّ أنَّه لا يمسي فيبشر بالجنة أو النار؟

تـزود من الدنيـا فإنـك لا تـدري ------ إذا جـن ليـل هـل تعيـش إلى الفـجر
فكم من صحيـح مات من غير علة ------ وكم من سقيـم عـاش حيناً من الدهر
وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ------ وأكفانه في الغيب تنسج وهو لا يدري
وكم من صـغار يرتجى طول عمرهم ------ وقـد أدخـلت أجسـامهم ظـلمة القبر
وكم من عـروس زينـوها لـزوجها ------ وقـد قبضـت أرواحـهم ليـلة القـدر
فمـن عـاش ألـفـاً وألفـين------ فـلا بـد مـن يـوم يسـير إلى القـبر

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب فيها

ونظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها، فبكى وقال: والله لولا الموت لكنت بكِ مسروراً.

قال الشاعر:

هو الموتُ ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركبُ

وقال الآخر:

الموت بابٌ وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدارُ

ينبغي الاستعداد للموت بالعمل الصالح

قال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَاءِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

قال ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وحياتك قبل موتك، وصحتك قبل مرضك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك) رواه الحاكم.

وقال ابن عمر: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك) رواه البخاري.

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

وقال عونُ بنُ عبد الله: ما أنزل الموتَ كُنْهَ منْزلته مَنْ عدَّ غداً من أجله. كم من مستقبل يوماً لا يستكمِلُه، وكم من مؤمّل لغدٍ لا يُدرِكُه، إنَّكم لو رأيتم الأجلَ ومسيرَه، لأبْغَضتُم الأمل وغُرورَه، وكان يقولُ: إنَّ من أنفع أيام المؤمن له في الدنيا ما ظن أنَّه لا يدرك آخره.

وكانت امرأةٌ متعبدة بمكة إذا أمست قالت: يا نفسُ، الليلةُ ليلتُك، لا ليلةَ لكِ غيرها، فاجتهدت، فإذا أصبحت، قالت: يا نفس اليومُ يومك، لا يومَ لك غيره فاجتهدت.

وقال بكرٌ المزنيُّ: إذا أردت أنْ تنفعَك صلاتُك فقل: لعلّي لا أُصلّي غيرها، وهذا مأخوذٌ مما رُوي عن النَّبيّ ﷺ أنَّه قال (صلِّ صلاة مودّع).

وأقام معروفٌ الكرخيّ الصّلاةَ، ثم قال لرجل: تقدَّم فصلِّ بنا، فقال الرجل: إنّي إنْ صليتُ بكم هذه الصلاة، لم أُصلِّ بكم غيرَها، فقال معروف: وأنتَ تحدّث نفسك أنّك تُصلّي صلاةً أخرى؟ نعوذُ بالله من طولِ الأمل، فإنَّه يمنع خيرَ العمل

وطرق بعضُهم بابَ أخٍ له، فسأل عنه، فقيل له: ليس هو في البيت، فقال: متى يرجع؟ فقالت له جارية من البيت: من كانت نفسُه في يد غيره، لا يعلم متى يرجعُ.

ولأبي العتاهية من جملة أبيات:

وما أدري وإن أَمَّلْتُ عُمراً ... لَعَلّي حِينَ أُصبحُ لَستُ أُمسِي

ألم تَــرَ أنَّ كلَّ صباحِ يومٍ ... وعُمرُكَ فيــه أَقصَــرُ مِنــهُ أَمسِ

وهذا البيت الثاني أخذه مما روي عن أبي الدرداء والحسن أنَّهما قالا: ابنَ آدم، إنَّك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطتَ من بطن أمك، ومما أنشد بعضُ السَّلف:

إنَّــا لنــفــرحُ بالأيَّـــامِ نقطــعُها ... وكُلُّ يومٍ مضى يُدني من الأجل

فاعمَلْ لِنَفسِكَ قبلَ الموتِ مُجتهداً ... فإنَّما الرِّبْــحُ والخُسـرانُ في العَمَلِ

قال تعالى (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

نَسيرُ إلى الآجالِ في كلِّ لحظةٍ ... وأيّامُنا تُطوى وهُنَّ مَراحِلُ

ولم أرَ مثــلَ المـــوتِ حقاً كأنَّه ... إذا مــا تخطَّتْــه الأمــانيُّ باطِلُ

وما أقبحَ التَّفريطَ في زمنِ الصِّبا ... فكيف به والشَّيبُ للرَّأس شامِلُ

ترحَّل من الدُّنيا بزادٍ من التُّقى ... فــعُمْــرُكَ أيــامٌ وهُــنَّ قَــلائِـلُ

وقال عليه السلام (يتبع الميت ثلاثة أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) متفق عليه.

قال رجل يوصي آخر: يا أخي! احذر الموت في هذه الدار من قبل أن تصير إلى دار تتمنى بها الموت فلا تجده.

وقال ابن السماك: إن الموتى لم يبكوا من الموت ولكنهم يبكون من حسرة الفوت، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها، ودخلوا داراً لم يتزودوا لها.

وقال إبراهيم النخعي: كانوا يشهدون الجنازة فيُرى ذلك أياماً كأن فيهم الفكرة في الموت وفي حال الميت.

ولذلك لما علم أهل الفضل بأن الموت قريب وأنه آتٍ، عملوا لذلك واستعدوا له قبل وقوعه.

إن لله عبـــاداً فــطــنا .... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا إليها فلما علموا .... أنهـا ليســت لحي وطنا

جعلـوها لجـة واتخذوا .... صالح الأعمال فيها سفنا

٥٧٣ – وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَال (أخذ رسول الله ﷺ بِمِنْكَبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما، يقول: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. رواه البخاري.

==========

[الحديث تقدم شرحه : ٤٧٠] .

(**أخذ رسول الله ﷺ بِمِنْكَبِي**) **قال القسطلاني** –رحمه الله– (أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي) بكسر الكاف والموحدة وتخفيف التحتية: مجمع العضد والكتف.

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–قوله: «أخذ بمنكبي» أي: أمسك بكتفي من الأمام؛ وذلك من أجل أن يستحضر ما يقوله النبي ﷺ .

وقال الملا علي القاري –رحمه الله– (أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي) وأخذ المنكب للاهتمام والتنبيه .

١–الحديث أصل في قصر الأمل – وهو العلم بقرب الرحيل .

معنى الحديث :

قال النووي –رحمه الله– قالوا في شرح هذا الحديث معناه: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلَّق منها إلا بما يتعلَّق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله .

وقال ابن الملقن –رحمه الله– هذا الحديث شريف جامع لمعاني الخير، ومعناه: ...، وحاصله: الحض على قلة المحافظة عليها، وقلة الاقتناء، والزهد في الدنيا. .

وقال ابن بطال –رحمه الله– بيان ذلك: أن الغريب قليل الانبساط إلى الناس؛ بل هو مستوحش منهم؛ إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه فيأنس به، ويستكثر بخُلْطته فهو ذليل في نفسه خائف، وكذلك عابر السبيل لا ينفذ في سفره إلا بقوته عليه، وخفته من الأثقال، غير مُتَشبِّث بما يمنعه من قطع سفره، معه زاد وراحلة يُبلِّغانه إلى بغيته من قصده، وهذا يدل على إيثار الزهد في الدنيا، وأخذ البُلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يُبلِّغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يُبلِّغه المحل.

قال ابن القيم : قصر الأمل معناه العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للثبات على الطاعات، فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة التي تمر مر السحاب، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحث على قضاء جهاز سفره وتدارك الفائت، ويزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة. فكلما قصر الأمل جد العمل، لأن العبد يقدِّرُ أنه يموت اليوم فيستعد استعداد ميت، فإذا أمسي شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أن يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل، وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه، فقد أوصى النبي ﷺ ابن عمر فقال له: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

قال القسطلاني –رحمه الله– (كُن في الدُّنيا كأنك غريب) قَدِمَ بلدًا لا مسكن له فيها يُؤْوِيه، ولا سكن يسليه، خالٍ عن الأهل والعيال والعلائق التي هي سبب الاشتغال عن الخالق؛ ولما شبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن، ترقى وأضرب

عنه بقوله: «أو عابر سبيل» لأن الغريب قد يسكن في بلاد الغربة، ويقيم فيها، بخلاف عابر السبيل القاصد للبلد الشاسع، وبينه وبينها أودية مُرْدِيَة، ومفاوز مهلكة، وهو بمرصد من قطاع الطريق، فهل له أن يقيم لحظة، أو يسكن لمحة؟

٢-**قول ابن عمر : إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ .**

قال ابن الملقن -رحمه الله-وقول ابن عمر -رضي الله عنهما-: «إذا أمسيتَ...» إلى آخره، حض منه على أن يجعل الموت نصب عينيه؛ فيستعد بالعمل الصالح، وحض منه على تقصير الأمل، وترك الميل إلى غرور الدنيا، والمبادرة إلى العمل .

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- (وكان ابن عمر يقول) مخاطبة لنفسه أو لغيره: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء» أي: ليكن الموت في إمسائك وإصباحك نصب عينك، مُقَصِّرًا للأمل، مبادرًا للعمل، غير مؤخر عمل الليل إلى النهار، وعمل النهار إلى الليل .

٣-**قوله : وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.**

قال ابن الملقن -رحمه الله- قوله (وخذ من صحتك لمرضك) حض على اغتنام صحته، فيجتهد فيها لنفسه خوفًا من حلول مرض به يمنعه عن العمل، وكذلك قوله (ومن حياتك لموتك) تنبيه على اغتنام أيام حياته، لا تمر عنه باطلًا في سهو وغفلة؛ لأن من مات قد انقطع عمله وفاته أمله، فلا ينفعه ندمه، فيقدم وطنه بغير زاد، وقد ذم الله الأمل وطوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُوْنَ) .

وقال ابن هبيرة -رحمه الله- (وخذ من صحتك) أي: اغتنم زمن القوة، فاستسلف منك لك، واعلم أنه سيأتي عليك زمان طويل وأنت تحت الأرض، لا يمكنك أن تذكر الله -عز وجل-، فبادر في زمن سلامتك. .

وقال المظهري -رحمه الله- قوله (وخذ من صحتك لمرضك) يعني: اغتنم الصحة، وبالغ في العمل الصالح في حال الصحة عملًا كثيرًا، يكون ذلك العمل خيرًا لما فات عنك بلا عمل في حال المرض. (وخذ من حياتك لموتك) يعني: خذ في حال الحياة زاد الآخرة، وزاد الآخرة: العمل الصالح والتقوى . انتهى .

وقد جاء في حديث ابن عباس عند الحاكم: أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه (اغتنم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك) فالعاقل إذا أمسى لا ينتظر الصباح، وإذا أصبح لا ينتظر المساء، بل يظن أن أجله يدركه قبل ذلك، فيعمل ما يلقى نفعه بعد موته، ويبادر أيام صحته بالعمل الصالح؛ فإن المرض قد يطرأ فيمنع من العمل، فيخشى على من فرط من ذلك أن يصل إلى المعاد بغير زاد، فمن لم ينتهز الفرصة يندم.

٤-جاء عند الترمذي (وعد نفسك من أهل القبور) .

قال المناوي -رحمه الله- أيضًا (واعدد نفسك في الموتى) وترحَّل عن الدنيا حتى تنزل بالآخرة، وتحل فيها، حتى تبقى من أهلها، وأنك جئت إلى هذه الدار كغريب يأخذ منها حاجته، ويعود إلى الوطن الذي هو القبر.

٥-الحديث على استحباب قصر الأمل .

قال ابن رجب: وهذا الحديث أصلٌ في قِصَر الأمل في الدنيا، وأنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخذ الدُّنيا وطناً ومسكناً، فيطمئنّ فيها، ولكن ينبغي أنْ يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر: يُهَيِّئُ جهازَه للرحيل. ... (جامع العلوم)

وقال ابن القيم : ... وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طيء صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة، فيقوم بقلبه _ إذا داوم مطالعة قصر الأمل _ شاهد من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من

يوم صارت شمسه على روؤس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنها مع لقائها كمسافر قد خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

إلى أن قال رحمه الله: ويكفي في قصر الأمل:

قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

وقوله تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ).

وقوله تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا).

وقوله تعالى (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشمس على روؤس الجبال فقال: إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

ثم قال رحمه الله: وقصر الأمل بناؤه على أمرين:

تيقن زوال الدنيا ومفارقتها.

وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها.

فليس هناك أنفع للقلب من قصر الأمل (وهو العلم بقرب الرحيل). (انتهى)

قيل: من قصر أمله، قل همه، وتنور قلبه.

قَصِّرْ الآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ ** فَدَلِيل الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الأَمَلْ

وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) وَهَذِهِ هِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي هُوَ طُولُ الْأَمَلِ. كَفَانَا اللَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ شَرَّهُ.

قال وهب بن الورد: إن لله ملكاً ينادي في السماء كل يوم وليلة أبناء الخمسين: زرع دنا حصاده، أبناء الستين: هلموا إلى الحساب، أبناء السبعين: ماذا قدمتم و ماذا أخرتم، أبناء الثمانين: لا عذر لكم.

وعن وهب قال: ينادي مناد: أبناء الستين: عدوا أنفسكم في الموتى.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (أعذر الله إلى من بلغه ستين من عمره).

قال الفضيل: من الشقاء طول الأمل، ومن النعيم قصر الأمل.

قال ابن القيم : ليس للعبد أنفع من قصر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل.

وقال: صدق التأهب للقاء الله، هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية. (طريق الهجرتين).

كان علي رضي الله عنه، يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق.

وحكي في قصر الأمل أن امرأة حبيب أبي محمد قالت: كان يقول لي – تعني أبا محمد – إن مت اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني ويفعل كذا وكذا، واصنعي كذا، فقيل لها: أرى رؤيا؟ قالت: هكذا يقول كل يوم ".

قال ابن القيم: اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصداً، وطول الأمل ينسي الآخرة ويصد عن الاستعداد لها.

وقال: وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب، وإضاعة الوقت، فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدى، والاستعداد للقاء. ... . (الفوائد)

٥٧٤ – وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ). متفقٌ عَلَيْهِ، هَذَا لفظ البخاري.

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «يَبِيتُ ثَلاَثَ لَيَالٍ» قَالَ ابن عمر: مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ قَالَ ذَلِكَ إِلاَّ وَعِنْدِي وَصِيَّتِي.

==========

(**ما حقُّ اِمْرِئٍ**) ما الحزم والاحتياط للمسلم إلا أن تكون وصيته مكتوبة عنده.

(**مُسْلِمٍ**) هذا الوصف خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، فإن وصية الكافر جائزة عند أهل العلم.

قال ابن حجر : والوصف بالمسلم خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، أو ذُكر للتَّهْيِيج لتقع المبادرة لامتثاله لِمَا يُشعر به مِن نفي الإسلام عن تارك ذلك، ووصية الكافر جائزة في الجملة، وحكى ابن المنذر فيه الإجماع .

(**لَهُ شَيْءٌ**) جاء في رواية في غير الصحيحين بلفظ (له مال). يتناول المال والقرض والكفارات والدين.

(**يَبِيتُ**) جاء عند أحمد (حق على كل مسلم ألا يبيت ...).

(**لَيْلَتَيْنِ**) عند مسلم (يبيت ثلاث ليال) قال القرطبي: المقصود بذكر الليلتين، أو الثلاث: التقريب، وتقليل المدَّة ترك كتب الوصية. ولذلك لَمَّا سمعه ابن عمر ـ رضى الله عنه، لم يبت ليلة إلا بعد أن كتب وصيته، والحزم المبادرة إلى كتبها أول أوقات الإمكان، لإمكان بغتة الموت التي لا يأمنها العاقل ساعة، ويحتمل أن يكون إنما خصَّ الليلتين بالذكر فسحة لمن يحتاج إلى أن ينظر فيما له وما عليه، فيتحقق بذلك، ويروي فيها ما يوصي به، ولمن يوصي، إلى غير ذلك.

(**مَكْتُوبَةٌ**) سواء كتبها بنفسه أو كتبها له غيره.

١–الحديث دليل على مشروع الوصية ، وهي مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى (من بعد وصية يوصي بها أو دين).

قال تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية).

وحديث الباب.

وقد أجمع العلماء في جميع الأمصار والأعصار على جواز الوصية . [قاله ابن قدامة]

٢–حث النبي ﷺ على كتابة الوصية استعداداً للموت ، وأداء الحقوق لأهلها .

٣–قوله (لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ) دليل على أن الوصية مستحبة لمن ترك مالاً كثيراً .

فالوصية :

تكون مستحبة : لمن ترك خيراً كثيراً .

لقوله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ) .

وتكون واجبة : على من عليه حقوق للناس لا بينة فيها ، حتى تبرأ ذمته ولا تضيع حقوق الناس .

لحديث الباب .

قال ابن قدامة : وَلَا تَجِبُ الْوَصِيَّةُ إلَّا عَلَى مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ ، أَوْ عِنْدَهُ وَدِيعَـةٌ ، أَوْ عَلَيْهِ وَاجِبٌ يُوصِي بِالْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ أَدَاءَ الْأَمَانَاتِ ، وَطَرِيقُهُ فِي هَذَا الْبَابِ الْوَصِيَّةُ ، فَتَكُونُ مَفْرُوضَةً عَلَيْهِ .

وقال الخطابي -رحمه الله-قوله (ما حقُّ امرئٍ مسلم) معناه: ما حقُّه مِن جهة الحزم والاحتياط إلا أن تكون وصيتُه مكتوبةً عنده، إذا كان له شيءٌ يريد أن يوصِي فيه؛ فإنه لا يَدري متى توافيه منيَّتُه، فتَحُوْلُ بينَه وبين ما يُريد مِن ذلك .

٤-قال ابن حجر : وفيه: الندب إلى التأهب للموت والاحتراز قبل الفوت؛ لأن الإنسان لا يدري متى يفجؤه الموت، لأنه ما مِن سِنٍّ يفرض إلا وقد مات فيه جمعٌ جمٌّ، وكل واحد بعينه جائز أن يموت في الحال؛ فينبغي أن يكون متأهبًا لذلك، فيكتب وصيته، ويجمع فيها ما يَحصُل له به الأجر ويُحبِط عنه الوِزر من حقوق الله وحقوق عباده، والله المستعان.

٥-يجب الاستعداد للموت بأداء الحقوق لأهلها .

٦-حرص السلف على تطبيق العلم والعمل به .

أمثلة :

أ-عنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ (بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنِ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا» قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ «عَجِبْتُ لَهَا فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ» قَالَ ابْنُ عُمَرَ فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ. رواه مسلم.

ب- عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ (مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّى لِلَّهِ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ إِلاَّ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ أَوْ إِلاَّ بُنِىَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ) رواه مسلم.

قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ فَمَا بَرِحْتُ أُصَلِّيهِنَّ بَعْدُ. وَقَالَ عَمْرٌو مَا بَرِحْتُ أُصَلِّيهِنَّ بَعْدُ. وَقَالَ النُّعْمَانُ مِثْلَ ذَلِكَ.

ج-عن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل) متفق عليه.

قال سالم: (فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً).

د-ولما علم النبي ﷺ علياً وفاطمة: (أن يسبحا ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبرا أربعاً وثلاثين قبل النوم قال علي: ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ قيل: ولا ليلة صفين: قال: ولا ليلة صفين) رواه مسلم.

هـ-حديث الباب (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ثلاث ليال، إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه).

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: مَا مَرَّتْ عَلَىَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ إِلاَّ وَعِنْدِي وَصِيَّتِي.

و-وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ (من قرأ آية الكرسي عقيب كل صلاة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت). رواه النسائي

قال ابن القيم: بلغني عن شيخ الإسلام أنه قال: ما تركتها عقب كل صلاة إلا نسياناً أو نحوه.

قال البخاري: ما اغتبت أحداً منذ علمت أن الغيبة حرام.

وقال الإمام أحمد: ما كتبت حديثاً إلا قد عملت به، حتى مرّ بي أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبى طيبة ديناراً فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً.

٥٧٥ – وعن أنس ﷺ قَالَ (خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا، فَقَالَ: «هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ الخَطُّ الأَقْرَبُ) رواه البخاري.

٥٧٦ – وعن ابن مسعود ﷺ قَالَ (خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَط، فَقَالَ: «هَذَا الإِنْسَانُ، وَهذَا أَجَلُهُ مُحِيطًا بِهِ – أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ – وَهذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا، نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا، نَهَشَهُ هَذَا». رواه البخاري

==========

(**خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ**) أي: للصحابة.

(**خَطًّا مُرَبَّعًا**) الظاهر أنه كان بيده المباركة.

(**وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ**) أي: وسط المربع.

(**وَقَالَ هَذَا الإِنْسَانُ**) أي: الخط المصور مثاله الإنسان.

(**وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ**) أي: المربع.

(**وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ**) أي: الخط المستطيل المنفرد.

(**وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ**) أي: الآفات والأعراض من المرض والجوع والعطش وغيره.

(**فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا**) أي: أصابه، وعبر بالنهش وهو لدغ ذات السم مبالغة في الإصابة والإهلاك.

١ – في الحديث إشارة إلى الحض على قصر الأمل، والاستعداد لبغتة الأجل، وعبر بالنهش وهو لدغ ذات السم مبالغة في الإصابة والإهلاك.

والشاهد أن الإنسان تتجاوز آماله حدود أجله، و يخترمه أجله دون أمله، وقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنى.

فعن جابر بن زيد ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ ثلاثة أعواد، فغرس إلى جنبه واحداً ثم مشى قليلاً، فغرس آخر ثم مشى قليلاً، فغرس آخر ثم قال: هل تدرون ما هذا؟ هذا مثل ابن آدم، وأجله، وأمله، فنفسه تتوق إلى أمله، ويخترمه أجله دون أمله.

٢ – الحديث دليل على خطر طول الأمل، وأن على الإنسان أن يقصر أمله.

معني طول الأمل: هو الاستمرار في الحرص على الدنيا ومداومة الانكباب عليها مع كثرة الإعراض عن الآخرة.

وفي تفسير قوله تعالي: (ويُلهِهِمُ الأَملُ) يقول القرطبي –رحمه الله–: أي يشغلهم عن الطاعة.

وقال ابن حجر: وفي الأمل سر لطيف، لأنه لولا الأمل ما تهني أحد بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته، وسبب طول الأمل الجهل وحب الدنيا.

وقد جاءت الآيات الكثيرة في ذم طول الأمل:

قال تعالى (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

وقال تعالى (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

قال رسول الله: (لا يزال قلب الكبير شابّاً في اثنتين: في حبّ الدّنيا وطول الأمل).

- يتولد من طول الأمل:

الكسلُ عن الطاعة، والتسويفُ بالتوبة، والرغبةُ في الدنيا، والنسيانُ للآخرة، والقسوة في القلب؛ لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكر الموت، والقبر، والثواب، والعقاب، وأهوال يوم القيامة؛ كما قال تعالى (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ).

قال ابراهيم بن أدهم: من أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله.

قال ابن القيم: إضاعة الوقت من طول الأمل.

وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل.

وقال الفضيل: إن من الشقاء طول الأمل، وإن من النعيم قصر الأمل.

وقال بعض الحكماء: الجاهل يعتمد على الأمل، والعاقل يعتمد على العمل.

وقال ابن القيم: مفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل.

وقال الحسن: إياك والتسويف؛ فإنك بيومك ولست بغدك.

قال الغزالي: إذا طولت أملك قلت طاعتك.

وقال بعضهم: الأمل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه.

وقال يحيى بن معاذ: الأمل قاطع عن كل خير، والطمع مانع من كل حق.

وقال ابن مسعود: لا يطولنّ عليكم الأمد ولا يلهينّكم الأمل فإنّ كلّ ما هو آت قريب.

وقال معروف الكرخي: نعوذُ بالله من طولِ الأمل، فإنَّه يمنع خيرَ العمل.

قال ابن بطال: الخير ينبغي أن يبادَر به؛ فإن الآفات تعرض، والموانع تمنع، والموت لا يؤمَن.

وقال القرطبي: (ويُلهِهِمُ الأَمل) أي: يشغلهم عن الطاعة.

قال علي: إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى؛ فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق.

ومن أقوال ابن الجوزي: الأمل مذموم إلا للعلماء فلولاه ما صنفوا، وإني رأيت خلقاً كثيراً غرهم الشباب ونسوا فقد الأقران، وألهاهم طول الأمل، ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه، فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلاً.

ويجب على من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعداً.

٥٧٧ – وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلاَّ فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟!) رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن».

==========

[الحديث تقدم شرحه : ٩٧] .

(**بَادِرُوا**) أي : سابقوا ، فالمبادرة المسارعة بإدراك الشيء قبل فواته. أو بدفعه قبل وقوعه

(**بِالأَعْمَالِ**) الصالحة .

(**سَبْعًا**) أي : قدوم هذه السبع المانعة من العمل .

١-معنى الحديث : الحث على المبادرة بالأعمال الصالحات قبل قدوم ما يمنع من العمل كالفقر الذي يشغل الإنسان ، أو الغني الذي يطغي ، أو الموت ، أو المرض ، أو خروج الدجال وغيرها من الموانع التي تمنع من العمل .

وقد تقدم حديث أبي هريرة . قال : قال ﷺ (بادِرُوا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ اللَّيلِ المظلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجلُ مُؤمِنًا، ويُمْسِي كافرًا، أو يُمْسِي مُؤْمِنًا، ويُصْبِحُ كافرًا، يَبِيعُ دينَهُ بِعَرَضٍ مِن الدُّنيا) رواه مسلم .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- قوله: «بادروا بالأعمال فتنًا» أي: سابقوا بالأعمال الصالحة هجوم المحن المانعة منها، السالبة لشرطها المصحح لها الإيمان؛ كما قال: «يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسي كافرًا»، ولا إحالة ولا بُعْد في حمل هذا الحديث على ظاهره؛ لأن المحن والشدائد إذا توالت على القلوب أفسدتها بغلبتها عليها، وبما تؤثر فيها من القسوة. .

وقال النووي -رحمه الله- معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقْمِر.

٢- أن على المؤمن أن يبادر بفعل الطاعات والاجتناب عن المعاصي ولا يمهل، ولا يؤخر عمل اليوم إلى غد، ولا عمل الساعة إلى ما بعدها؛ فإنه لا يدري متى يموت؟

٣-بيان حرص النبي ﷺ على أمته، حيث يحثهم على الإكثار من الطاعات قبل أن تمنعهم الفتن الشاغلة .

٤-أنه ينبغي للمؤمن أن يبادر بالأعمال الصالحة، وفعل الحسنات ما وجد إلى ذلك سبيلًا، قبل فوات أوانها، وتغلق أبوابها، فيقع في الندم كما يقع مَن يقول (يَا حَسْرَتَا) أو يقول: لو أن لي عُمْرًا لأكونن من العاملين العابدين، أو يقول (لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

٥٧٨ - وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ) يَعْنِي: المَوْتَ. رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن».

==========

(هَاذِمِ) بالذال أي: قاطع.

(اَللَّذَّاتِ) أي لذات الدنيا.

١-الحديث دليل على استحباب كثرة ذكر الموت .

لقوله (أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ) .

وفي الإكثار من ذكر الموت فوائد :

يرقق القلب، ويرغب في الآخرة ويحث على الاجتهاد إليها، والنشاط في العبادة، ويرضى بالقليل من الدنيا، ويزهد في الدنيا، ويريح القلب من همّ الدنيا، و يمنع من الأشر والبطر والتوسع من الدنيا، ويحث على التوبة والاستدراك، ويدعو إلى التواضع وترك الكبر والظلم، ويقصر الأمل.

قال ﷺ (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة) وفي رواية (وترق القلب وتدمع العين).

قال ابن رجب: في الإكثار من ذكر الموت فوائد: منها: أنه يحث على الاستعداد له قبل نزوله، ويقصّر الأمل، ويُرضي بالقليل من الرزق، ويزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة، ويهوّن مصائب الدنيا، ويمنع من الأشر والبطر والتوسع في لذات الدنيا.

وقال الدقاق: من أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العباد

وقال الحسن : من أكثر من ذكر الموت هانت عليه مصائب الدنيا .

وقال بعض السلف: من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، والنشاط في العبادة.»

قال سعيد بن جبير: لو فارق الموت ذكر قلبي لفسد.

٢- الإيمان بالموت يتضمن أموراً:

أولاً: تحتمه على كل من كان في الدنيا من أهل السماوات والأرض من الإنس والجن والملائكة.

قال تعالى: (كل شيء هالك إلا وجهه).

وقال تعالى: (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).

وقال تعالى: (كل نفس ذائقة الموت).

ثانياً: أن كل له أجل محدود وأمد ممدود ينتهي إليه لا يتجاوزه ولا يقصر عنه.

قال تعالى: (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا).

وقال تعالى: (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً).

وعن أُم حَبِيبَة زَوْجُ النَّبِيِّ أنها قالت (اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ. قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئاً قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئاً عَنْ حِلِّهِ وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْراً وَأَفْضَلَ) رواه مسلم.

ثالثاً: أن ذلك الأجل المحتوم والحد المرسوم لانتهاء كل عمر إليه لا اطلاع لنا عليه ولا علم لنا به.

قال تعالى: (وما تدري نفس ما ذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت).

رابعاً: التأهب له قبل نزوله والاستعداد لما بعده قبل حصوله.

عن ابن عمر قال: (أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك). رواه البخاري

وقال علي: (ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولك واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل).

وقال تعالى: (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ...).

وقال تعالى: (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) **٥٧٩ – وعن أُبَيّ بن كعبٍ ﷺ (كَانَ رسول الله ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ قَامَ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللهَ، جَاءتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ» قُلْتُ: يَا رسول الله، إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي؟ فَقَالَ: «مَا شِئْتَ» قُلْتُ: الرُّبُع، قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: فَالنِّصْف؟**

قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: فالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: أجعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: «إِذًا تُكْفى هَمَّكَ، وَيُغْفَر لَكَ ذَنْبكَ». رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن».

==========

(**جَاءتِ الرَّاجِفَةُ**) النفخة الأولى.

(**الرادفة**) النفخة الثانية.

(**فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي**) المراد بالصلاة هنا الدعاء .

قال الشوكاني: "المراد بالصلاة هنا الدعاء الذي من جملته الصلاة على رسول الله ﷺ، وليس المراد الصلاة ذات الأذكار والأركان ... فكأنه قال: أجعل كل دعاء أردتُ أن أدعو به لنفسي لك، فقال النبي ﷺ (إذًا تُكفى همك ...) إلخ؛ أي: إذا جعلت مكان الدعاء لنفسك الدعاء لي حصلت لك المغفرة، وكفاية المهمات .

وقال ابن حجر الهيتمي : المراد بالصلاة: الدعاء .

١-الحديث دليل على قرب الموت من العباد، ولكن أكثر الناس غافلون عنه ... فينبغي للإنسان أن يعمل قبل هجوم الموت عليه فيندم ويتحسر على التفريط .

فحق على كل إنسان أن يستعد للموت قبل نزوله، وذلك بالمبادرة بالعمل الصالح قبل حلول الأجل.

لقد حثنا ربنا -عز وجل- أعظم الحث، ودعا إلى اغتنام الفرص في زمن المهلة، وأخبرنا أن من فرط في ذلك تمناه، وقد حيل بينه وبينه.

قال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

قال الشاعر:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدًا ندمت على التفريط في زمن البذر

وقد تقدم حديث ابن عمر (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) .

وفي رواية للترمذي (وعد نفسك من أهل القبور، فإنك لا تدري يا عبدالله ما اسمك غدًا) .

قال الشاعر:

تفـانـوا جميـعًا فمـا مخبر وماتـوا جميعًا ومـات الخبر

تـروح وتغـدو بنات الثرى وتمحي محاسن تلك الصور

فيا سائلي عن أناس مضوا أمـا لـك فيما تـرى معتبر

وقال آخر:

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت غاية كلّ حيّ

ولكنَّا إذا متنا بعثنا ونسأل بعدها عن كل شيّ

الموت، ما الموت؟ أمرٌ كُبَّار، وكاس يُدار، فيمَن أقام وسار، يخرج بصاحبه إلى الجنةِ أو إلى النار، ما زال لأهل اللذات مكدرًا، ولأصحاب العقول مغيّرًا ومُحيّرًا، ولأرباب القلوب عن الرغبةِ فيما سوى الله زاجرًا، كيف ووراءه قبرٌ وحساب، وسؤال وجواب، ومِن بعده يومٌ تُدهش فيه الألباب، فيُعدم فيه الجواب.

٢-فضل الصلاة على النبي ﷺ ، لقوله (إِذًا تُكْفى هَمَّكَ، وَيُغْفَر لَكَ ذَنْبكَ) .

فهي سبب لكفاية الهم ومغفرة الذنب .

قال التوربشتي: معنى الحديث كم أجعل لك من دعائي الذي أدعو به لنفسي، فقال (إذن تكفى همك) أي ما أهمك من أمر دينك ودنياك ؛ وذلك لأن الصلاة عليه مشتملة على ذكر الله وتعظيم الرسول، والاشتغال بأداء حقه عن أداء مقاصد نفسه.

وقال ابن علان البكري رحمه الله: ووجه كفاية المهمات بصرف ذلك الزمن إلى الصلاة عليه: أنها مشتملة على امتثال أمر الله تعالى، وعلى ذكره وتعظيمه، وتعظيم رسوله، ففي الحقيقة لم يفت بذلك الصرف شيء على المصلي، بل حصل له بتعرضه بذلك الثناء الأعظم أفضل مما كان يدعو به لنفسه، وحصل له مع ذلك صلاة الله وملائكته عليه عشراً، مع ما انضم لذلك من الثواب الذي لا يوازيه ثواب، فأيّ فوائد أعظم من هذه الفوائد؟ ومتى يظفر المتعبد بمثلها، فضلا عن أنفَسَ منها؟ وأنى يوازي دعاؤه لنفسه واحدة من تلك الفضائل التي ليس لها مماثل؟ " انتهى بتصرف.

وقال الشوكاني رحمه الله : قوله (إذن تكفى همك ويغفر ذنبك) في هاتين الخصلتين جماع خير الدنيا والآخرة؛ فإن من كفاه الله همه سلم من محن الدنيا وعوارضها؛ لأن كل محنة لا بد لها من تأثير الهم وإن كانت يسيرة. ومن غفر الله ذنبه سلم من محن الآخرة؛ لأنه لا يوبق العبد فيها إلا ذنوبه .

٣-قال علماء اللجنة الدائمة: هذا الحديث لا ينافي أن يدعو الإنسان ربه ويسأله أموره كلها بالأدعية المشروعة، وأن يكثر من الصلاة على النبي ﷺ فيجمع بين الأمرين .

٤-ولعل المراد بالحديث: أنه كان لأبي بن كعب دعاء معين، يدعو به، فسأل عن استبداله بالصلاة، وإلى ذلك يشير قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : هذا كان له دعاء يدعو به، فإذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي ﷺ كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ؛ فإنه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة: آمين ولك بمثله. فدعاؤه للنبي ﷺ أولى بذلك .

وقال شيخ الإسلام أيضاً : مقصود السائل: يا رسول الله إن لي دعاء أدعو به، وأستجلب به الخير، وأستدفع به الشر فكم أجعل لك من الدعاء؟ قال: ما شئت. فلما انتهى إلى قوله: أجعل لك صلاتي كلها قال: إذا تكفى همك ويغفر ذنبك.

وفي الرواية الأخرى: إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك ... وهذا غاية ما يدعو به الإنسان لنفسه من جلب الخيرات ودفع المضرات . (الفتاوى)

تنبيه :

وقال الشيخ العثيمين في الكلام على الحديث المذكور ما لفظه: هناك احتمالان:

الاحتمال الأول: وإليه ذهب شيخ الإسلام ـ فيما أظن ـ أن الرسول كان يعلم له دعاءً معيناً، فأراد الرسول ﷺ أن يجعل دعاءً معيناً كله للرسول ﷺ .

والوجه الثاني: أن يقال: المراد أنك تشرك النبي ﷺ في كل دعاء تدعوه، وإلا فإن من المعلوم أن الإنسان لو أخذ بظاهر الحديث لكان لا يقول: رب اغفر لي، ولا يقول: اللهم ارحمني، ولا يقول: اللهم ارزقني، بل يقول: اللهم صل على محمد، ويكفى

الهم، وهذا خلاف ما جاءت به الشريعة، الإنسان مأمور أن يدعو لنفسه في السجود، وفي الجلسة بين السجدتين، وفي دعاء الاستفتاح على أحد الوجوه التي وردت فيه، فهذا يحمل على المعنيين إما أن الرسول ﷺ كان يعلم أنه يدعو بدعاء معين فأراد الرسول ﷺ أن يجعله للرسول، وإما أن يشركه معه في دعائه، فكأنه قال صلاتي كلها يعني: كلما دعوت لنفسي صليت عليك. انتهى

جواز ذكر الإنسان صالح عمله إذا أمن من العُجب؛ لغرض كالاستفتاء.

٥-فضل قيام الليل وخاصة الثلث الأخير .

٦-حرص النبي ﷺ على أمته .

٧-شدو عبودية النبي ﷺ لربه وخوفه منه .